الكتب

هدية الكروان

مجموعة أشعار للاستاذ عباس محمود العقاد

كلمة تقدير ونقد للاديب عبد الرحمن صدقي

بات العقاد يصغي لهتفات الكروان في الليالي الحسان السواحر، ويتطلع الا مجالي الربيع من زهر وعطر، ويتملى بجمال الحياة من حب وحسن، ويخف لشباب النفس من عطف وبشر. ومن هذه جميعا اقتبس مجموعة اشعاره الجديدة «هدية الكروان». وهي وان لم تكن جميعا منظومة في مناجاة الكروان، الا انها في موسيقيتها كأنما تعارض الكروان وتساجله.

هذه خلاصة قولي في الديوان الاخير. وهذه الخلاصة نفسها مقتبسة من تقدمة الديوان نفسه نظما ونثرا! ولا عجب فالعقاد جبار لا يكاد يدع بعد مقاله مجالا لقول قائل

ولقد عرض الشاعر في مقدمته المنثورة لطائره الصيدح في كلمات منثورة ناصعة البيان، رخيمة الحواشي مصقولة الاطراف كحب الجمان، غنية بالمعاني الدقيقة الصادقة. قال:

(تسمعه الفينة بعد الفينة في جنح الليل الساكن النائم البعيد القرار، فيشبه لك الزاهد المتهجد الذي يرفع صوته بالتسبيح والابتهال فترة بعد فترة، ويشبه لك الحارس الساهر العساس الذي يتعهد الليل بالرعاية بين لحظة ولحظة. وينطلق بالغناء في مفاجأة منتظرة او انتظار مفاجيء فلا تدري أهي صيحة جذل أم هي صيحة روعة واجفال. ولكنك تشعر بالجذل والروعة والاجفال تتقارب وتتمازج في نفسك حتى لا تتفرق. كأنك تصغي الى طفل يرتاع وهو جذلان، ويجذل وهو مرتاع، ويطلب الخطر ويشتهيه لأن الخطر في خفه طراقة وحركة، فهو من عالم التفاؤل والاقبال لا من عالم التشاؤم والنكوص

(ويطلع عليك بهتافه من هنا وهناك وعن اليمين وعن الشمال وعلى الارض وفوق الذرى. فيخيل اليك أنك تستمع الى روح هائم لا يقيده المكان ولا يعرف المسافة، أطلقوه في الدنيا على حين غرة فسحرته فتنة الدنيا وخلبته محاسن الليل فهو لا يعرف القرار ولا يصبر في مطار.

(فأنت تتلقى من صوت هذا الطائر الأليف النافر عالما من معان واشجان يتجاوب فيها تقديس المصلي القانت وحدب الحارس الامين وروح الطفولة ومناجاة الخطر المقبول وهيام الروح المنهوم بالحياة والجمال: عالم لا نظير له فيما نسمع من غناء الطير بهذه الديار)

هذا الوصف الرائع من العقاد لا يفوقه موسيقية وجيشانا، ولا يدق عنه معنى واحساسا، ولا يزيد عليه تصرفا وافتنانا الا نظم العقاد.

وأشعار (هدية الكروان) كسابقتها في وحي الاربعين، تنزع الى الموسيقى في تقطيع أوزانها وعذوبة نظم الفاظها ولطف وجدانياتها. تخلق حولك جوا من الموسيقى الرفيعة الساحرة تشيع روحها وتشيع حتى تملأ عليك الفضاء وتملك منك المشاعر، وحتى لتحس ان الموسيقى ليست لشعره أداة تعبير فحسب، بل هي عنصره الصميم

وأظهر ما تظهر هذه الميزة في أنشودة «ما احب الكروان» فقد افترق الشاعر وصاحبه فتراءوا عند النجوى واللقاء على البعد عندما سمعا هتفات الكروان:

ما أحب الكروان!
هل سمعت الكروان؟
موعدي يا صاحبي يوم افترقنا
حيث كانت جيرة أو حيث كنا
هاتف يهتف بالاسماع وهنا(١)
هو ذاك الكروان! هو هذا الكروان!

* * *

الكروان كثير أو قليل
عندنا او عندكم بين النخيل
ثم صوت عابر كل سبيل
هو صوت الكروان! في سبيل الكروان

(١) الوهن من الليل عند منتصفه

لى صـــدى منه فـــلا تنسى صداك
هـو شاديك بـــلا ريب هنـاك
فاذا مـا عسعس الليـــل دعـــاك
ذاك داعى الكروان ، هل اجبت الكروان؟

***

مفرد لـــكنه يؤنســـنا
ساهر لكنه يتعسنا
صدحت فى نفســـه أنفســـنا
فسمعنا سواء ، وسمعنا الكروان

***

واحـــد أو مائة ترجعـــه
عنـــدنا أو عندكم مطلعـــه
ذاك شيء واحـــد نسمعه
فى أوان وبيان ، هو صوت الكروان

***

واحـــد بين عصور وعصور
نحن نستحيي به تلك الدهور
لم يفتنـــا غابر الدنيا الغرور
فى أوان الكروان ، ما احب الكروان

وقد ألم الشاعر ببضع لمسات من ريشته المنغومة فى خفة وايجاز بليغ بحركة الكروان وطفراته فى مطاره ، وسرعة انتقاله هنا وهناك فى الفضاء الداجى ، فلا تكاد تسمعه من بعيد الا ويصبح أقرب قريب ، ولا تكاد تقول مع الشاعر : هوه ذاك ، الكروان حتى تردف كما أردف : هو « هذا » الكروان وحتى تجمل معه هذين معاً فتقول : هو صوت عابر كل سبيل

ولما كانت هذه الأنشودة من مستوحيات الالهام فى لحظاته النادرة ، فقد اجتمع فيها ما توسع الشاعر فى تنويعه وترجيعه فى غيرها من القصائد الجزلة والاناشيد المطربة . وتطيب لنا الاشارة الى مواضع هذا الترجيع تنويها بطبيعة الشاعر المطبوع الذى يعيش فى معانيه ! وتعيش معانيه منه فى منبت مريع التربة خصيب فهى لاتى فيه أبداً متفتحة نامية ، وأنفاسها أبداً خفاقة مرددة ، وحرارتها أبداً مذكوة متجددة .

فلا غرو إذن اذا رأيت هذه الاشارة الى طفرات الكروان يرددها الشاعر بين آن وآن ، موضحا موكداً :

بينا أقول هنا ، اذا بك من هنا
فى جنح هـــذا الليل أبعد باعد
لوددت ياكروان لو القيت لى
صوتين منك على مكان واحد

وكما لمح الشاعر فى أنشودته الى أنك لاتدرى عند سماعك هتفات الكروان المتقطعة المتثاقلة المتشابهة ، أهو واحد أو مائة ، فقد ترنم بهذا المعنى فى مقطوعة صغيرة هزجة النبرات متجاوبة الاصداء .

ألف صدى لهاتف منفرد على الذرى ؟
أم ألف شاد رددت هتافهـــا مكررا ؟
أم ذاك روح أطلقو ه فى الدنى محـــيرا
فرادها مستغربا وطافها مستبشرا
فلا يقال مقبـــل حتى يقـــال أدبرا ؟
هن كراوين الليا لى أو فقل هو الكرا (١)

وفى عزلة هذه الليالى الساجية يساهر شاعرنا هذا الطائر الساهر ، ويأنس به ويصغى لدعواته ، وقد يهفو أحيانا على جناح الفكر ، فيذكر الطيور المغردة فى الفجر فيجرى على لسانه :

لهجت طيور بالضحى وتكفلت بالليل حنجرة المغنى الخالد

ثم تأخذ الشاعر النشوة وأى نشوة ، ويهز أعطافه الطرب وأى طرب ، فيغنى طائره المغنى أمتع الغناء وأعذبه :

لليـــل يا كروان بشراك طاب الاوان
بشراك ؟ بل أنت بشرى تهفو لها الآذان
الليل ذكرى وأنت الـ ـمذكر اليقظان
ان كان فى السمع طيف فانت يا كروان
صوت ولا جثمان لحن ولا عيـــدان
كأنه هاتف فى فضائه حـــيران
أو رجع صوت قديم يعيـــده الحسبان
ليل الطبيعة صمت وأنت فيـــه لسان
وظلة الليل سر فاقرأه يا ترجمان
واملأ من الليل نفسا عزيزة لا تهان
لا هتفة فيه تبقى الى غد أو أذان
الليـــل يا كروان والصـــامت الغفلان
ونسمة الصيف تسرى وفى يديك الحنان
والصبح أول مرسى يرتاده الركبان
الليل يا كروان ! الصبح يا كروان!

وهنا يحسن بى الصمت هنيهة تاركا فى سمعى ومسامع القراء ،

(١) الكرا مفرد وهو ذكر الكروان

وفى نفوسنا المتضعضعة السكرى جميعا، هذه الاصداء الشجية والمعانى السرية المجلوة

نتنقل بعدئذ الى بقية الديوان ، لا للكلام عنه — فأن الشعر الغنائى حظه الأجدر به الانشاد والتطريب ، لا المبالغة فى الدرس والتنقيب — وإنما لنومىء ايماءة المعجب المسحور بطرف البنان، الى بعض المقطوعات الغرر الحسان ، أمثال : ـ جمال يتجدد ـ بما فيه من فلسفة للحب عميقة الأثر غنية .. ، ـ واليوم الموعود ـ للمحب المشوق اليه شوق لاعج يتعجله ، ويكاد يجذبه من حمى الغيب ويتخطى به دوره فى الأيام ، ولو اختلت سيرة الشموس : وأنفرط لظام الدهر .... ، و ـ الثوب الأزرق ـ وهو آية فى الطلاوة وظرف الهندام وملاحة القالب .... و ـ الحب المثال ـ وقد خلعت المحبة بقدرتها الخالقة على كيان المحبوب شتى السمات والشكول، كلما اقترح الخيال المتفنن ، وهفت بدوات الهوى المتقلب ، وخيلت تمادير الأحلام .. ، و ـ قبلة من غير تقبيل ـ ما للمجتمع عليها من رقابة ، ولا له اليها من سبيل .... ، وذلكم الاحصاء المنمق البديع بعنوان ـ تسلم ـ وبمقتضاه يسلم الشاعر المهجور محاسن الدنيا ومجالى فتنتها لهاجره ، ويسردها بين يديه ، فى يوم عودته كما خلفها يوم قطيعته ، فالشاعر لم يفد منها متعة ولا معنى ، ولم يعرف لها استعمالا ، كأنما كانت الدنيا هامدة واقفة الحركة أثناء هذه الغيبة المريرة .. ، ثم ـ حلم اليقظة ـ و ـ كلمات ـ و ـ بلدى ـ و ـ سريان روح و ـ صنوف حب ـ وهذه جميعها كما ترى أغانى حب ترى فيها الشاعر عاكفاً على الجمال كأنه العابد المتبتل، يمسح يده الملتهبة على تمثاله ، ويتدله فى لثمه وتقديسه ، ومع هذا الاستغراق من الشاعر فى حسه ، وتهالكه على حبه ، فليس فى غزله أثر للترقق المخنث ، والاسترخاء المهين والتباكى الهازل ، كما أن هذه العبادة الوثنية فى الشاعر للاشكال المحسوسة والصور المفرغة ، مقرونة على الدوام بالتصعيد المعنوى والتجريد الروحى ، فلا محسوس عنده الا يشف عن معنى ويقوم رمزا على فكرة ، ولا معنى عنده الا يبرز فى محسوس ويتجسد فيه

وها كم ما يقوله صاحبنا نفسه فى ما يسميه ـ الفن الحى أو الحياة الفنية ـ :

نخيذ من الجسم كل معنى ، وجسم ... من معانى النفوس ما كان بكرا
جذا العيش يبدع الفكر جسما ... ويرى للحياة فناً وشعرا
ويرى الفن كالحياة حياة ، ... ويرى للحياة فناً وشعرا
ضل من يفصل الحياتين جهلا ، ... واهتدى من حوى الحياتين معا

ونحب ، ونحن بصدد الاشارة الى أغانى الغزل ، أن نعرض تحت أنظار شاعرنا الكبير أن بعض المقطوعات كالمتبول والفنجان والرقية وساعى البريد لا تقع فى نفوسنا موقع سائر أغانيه ، ولسنا نجهل أن من بين شعراء الشرق والغرب من عالجوا أمثال هذه العادات الشعبية والمواضيع الدارجة فى شعرهم ، ولكنها بعد دون العقاد ، ونحاول لها على هذه الصورة فيه ترخص فادح

ونزيد بهذه المناسبة — أن بالديوان منظومة عن البيرة على لسان طفل ، وهى فى وهمنا وبحسب ذوقنا محسوبة على الفكاهة ولا فكاهة فيها ، وليست من الفكاهة فى قليل ولا كثير . ونحن نعرف للعقاد غيرها كثيرا أبدع فى نوعه منها وأفكه ، وقد ترفع الأستاذ عن نشرها وحق له هذا الترفع .

ونحسب فى تعليل ما تقدم أن سهولة النظم ، وسرعة استجابة اللفظ ، وليس أداة التعبير فى قبضة صناع اليدين فقط ، جعلته ينظم كل خاطرة ترد على ذهنه فى شتى المناسبات . ولو أنه يعانى فى النظم صعوبة وعنتا لأدخر الجهد الناصب لما هو أولى به من موضوعات وأحاسيس احتضنها ورخم عليها طويلا كعهدنا به أبدا . على أنه من حق الشاعر الكبير الذى يرضينا بنيف ومائة وخمسين صفحة أن يكون له رأيه وحريته فى بضع صفحات ، اذا هى لم ترضنا فلعلها ترضى الآلاف من قرائه ذوى الفضل ، وترضيه هو من ناحية فنية لم نعرفها بعد ، أولما يعلق بها عنده من ذكريات شخصية غالية

بقيت كلمة اعجاب بقصيدتين الى صديقين يوجه فى احداهما تهنئة وفى الأخرى تقريظا وفى هذه الاخيرة يقول فى وصف نفس صديقه :

جلت كالفراش فى أمة الطيـ ... ـر خفوقاً بين الندى والضياء
واستوت فى الحياة فوق جناح ... مستطار الخطى رقيق الغشاء

ولاشك فى انه لم توصف نفس بأجمل من هذين البيتين بغض النظر عمن قيلا فيه

كما ان قصائد « تجربتى » و « يوم شتاء » و « القديس » تلفت قارىء الصفات والتأملات كل منهما بصفة فيها متميزة ، لاسيما « القديس » فهى مطوية على ليل سرمدى . وأخيراً « ليالى راس البر » وهى من القصائد الخوالد تنبه فينا تلك الحالة النفسية الغامضة ، التى نحس فيها اتصال مشاهد هذا العالم المشهود بمعانى العالم المستور ، وقد اختار لها الشاعر وزناً طويلا ، وقافية كأنفاس الحالم الممدودة فكأنما يسرى القارىء منها فى عالم النسيان والرضوان

حقا هو كتيب صغير ولكنه ديوان كبير

عبد الرحمن صدقي